٨ — من ذكريات فى بلاد النوبة :

من التـــــاريخ الحديث

للأستاذ عبد الحفيظ أبو السعود

منذ أن عرف الإسلام طريقه إلى بلاد النوبة ، أشرق فى قلوب أهلها ، إشراق الشمس تبدد حلكة الظلام وأضاء أفئدتهم ، وأفهمهم معنى الوطنية الصادقة ، وأنها ليست كلمة تلوكها الألسنة ، ثم لا يكون لها بعد هـذا أثر يذكر ، أو خبر يذاع وينشر ، أو عمل تدفع إليه النفس التواقة إلى المجد ، والمستطلعة إلى العزة ، والسيادة والعظمة .

ويفهم هـذا المعنى السامى ، بدأ الامتزاج الحقيقى فى جميع نواحى الحياة ، والمشاركة فى أسمى أهدافها ، وأنبل غاياتها ، وعلموا أن المصريين إخوانهم فى الدين ، وشركاءهم فى العقيدة . والاتجاهات والميول ، لا يكادون يختلفون فى ناحية من النواحى ، أو شأن من الشئون ... وأن التزاوج والإصهار ، ومبادلة المنافع ، والمشاركات الوجدانية بين الأفراد ، كل أولئك لاشى الفروق ، وكان دليلا عمليا على فهم النوبيين لحقائق الدين ، وإدراك دقائقه ، وأسراره التى تخفى على الكثيرين من أبناء وطننا العزيز .. !!

ومنذ هذا الوقت حمدت فى نفوسهم عاطفة التناحر والتوائب ، وزالت الرغبة فى السيطرة والإعتداء ، وتلاشت روح الكراهية والعداء ، فأخلدوا إلى الهدوء والسلام ، وجنحوا إلى الطمأنينة والاستقرار ، وأيقنوا أن الامتزاج بينهم وبين المصريين أمر واقع لا شك فيه ، عن إخلاص ونقاء ، وحب وصفاء ، وليس حديث خرافة أو خيال .

ومن هذا الحين تجلت عواطف النوبيين نحو مصر ، سامية نبيلة ، كلها الحب الذى لا يعرف البغض ، والإخلاص الذى لا يعرف الرياء والمكر ، أو النفاق والخداع .

وما أروع النوبى حين يخلص ، وهو دائما المخلص الأمين ، الذى يحترم العلائق ، ويقدس الروابط والوشائج ، ويرعى العهد والزمام . !

ومن هذا الحين كذلك استفادت مصر من جهود أبناء النوبة الذين ساهموا جدياً فى بناء النهضة المصرية الحديثة ، مدفوعين بوازع من ضمائرهم الحية ، ودافع من إيمانهم العميق .

وقد اعتمد محمد على باشا على النوبيين فى تكوين الجيش الأول ، كما يقول سمو الأمير المرحوم عمر طوسون فى كتابه : صفحة من تاريخ مصر . إذا كانت الفرقة السادسة المسماة بالإفريقية ، تتركب من جنود نوبيين ، وجنود سناريين ، كانوا عماد النصر ، والظفر فى شتى الميادين ، ومختلف النواحى .

وكم شهدت بلاد النوبة بفخر عظمة الجيش المصرى الحديث ، أيام الخديو إسماعيل باشا سنة تسع وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية ... ذلك الجيش الذى درب أحسن تدريب ، ونظم خير نظام ، ولم يفت فى عضده صحارى بلاد النوبة الرحبة وقيافيها الجدباء ، فكان العتاد الحربى ينقل على ظهور الجمال ، ومتون السفن الشراعية والتجاريه ، حتى يصل إلى مدريه خط الاستواء ، التى فتحها المصريون بدمائهم ، وبذلوا فى سبيلها أرواحهم رخيصة هينة ، ويريد الإنجليز الآن انتزاعها ظلما وغدراً باسم العدالة والديمقراطية . وكم باسم الحق تراق الدماء ، وتزهق الأرواح باطلا وزوراً .

وقد لعبت بلدة كرسكوا ، وهى فى منتصف الطريق بين الشلال وحلفا تقريباً ، دوراً هاماً أيام إسماعيل باشا ، إذ كانت تصل إليها المعدات والعتاد الحربى ، ثم ينقل هذا كله على ظهور الإبل إلى بربر والخرطوم .

وقد شهدت توشكى — وهى بلدة قرب حلفا — أهم حوادث الثورة المهدية سنة تسع وثمانين وثمانمائة وألف ميلادية ، حين حاول عبد الرحمن ولد النجومى غزو مصر ، طامعاً فيها ، راغباً فى الاستيلاء والسيطرة عليها ، فخرج من دنقلا فى مايو سنة تسع وثمانين وثمانمائة وألف ميلادية ، فى جيش لا نظام له ، على الرغم من كثرة عدده ، وكانت الحكومة المصرية عالة بحركاته ، إذ كان سردار الجيش المصرى حينذاك رجلا اشتهر بالحكمة والروية ، والحنكة وبعد النظر . ووقعت مناوشات بين الجيشين قرب حلفا ، وما كاد يصل جيش السودان توشكى حتى التحم المقاتلون ، واشتد القتال ، وهى الوطيس . وتمكن الجيش المصرى من القضاء على عبد الرحمن ولد النجومى ، ومعظم جيشه .

وسر بذلك الخديو توفيق باشا ، فأرسل إلى السردار تهنئة بهذا النصر ، وأقيم مقام عظيم فى توشكى ضم جميع من مات من الجيش المصرى ، ونقش فوقه باللغة العربية حفراً :

« شيد هذا الأثر تذكاراً لواقعة توشكى التى حصلت فى ٦ من

ذى الحجة سنة ١٣٠٦ هـ ، وانهزم فيها جيش العصاة السودانى المرسل تحت إمرة عبد الرحمن ولد النجومى . فشتتوا بعد قتل أميرهم .. وفى هـذا القبر دفنت جثث العساكر المصرية الذين استشهدوا وهم فى الميدان »

وكأنما كانت هـذه الواقعة فألا حسنا على البلاد ، فامتدت سلطة الحكومة المصرية إلى سنرس (جنوباً) ، وزال هذا الخبر التعايشى وجنوده ، فأخذت تتداعى أركان الدولة المهدية ، ويتقوض بناؤها حجراً بعد حجر

وقد سار الخديو توفيق بنفسه بعد الواقعة فى بعض معيته إلى توشكى ، وهناك فى هذه البلدة النوبية الواقعة على الشاطىء الغربى للنيل ، والتى لا تبعد عن عنيبة أكثر من عشرة أميال تقريباً ، وقف الخديو توفيق أمام قبر شهدائها . وفى نفسه عواطف متباينة ، ومشاعر مختلفة . وأحاسيس متضاربة ، يتأمل ما أظهره عساكره من شجاعة وإقدام ، وما أبداه جنده من جرءة واستبسال وسرعان ما فاضت دموعه ترحما على هؤلاء الأبطال القتلى الذين بلغ عددهم فى هذه الواقعة ستة وعشرين قتيلا فقط .. !!

وفى الدر ، وإبريم ، وتوشكى ، وأبى سمبل عائلات من المماليك ، بيض الوجوه ، ضخام الجسوم ، يختلفون اختلافاً واضحاً عن بقية الأهلين من النوبيين الأصليين ، فلهم من المماليك نعرتهم ، وحدتهم ، واعتزازهم العجيب بأنفسهم ، إلى حد يدفعك إلى العجب ، ويوقعك أحياناً فى الحيرة والارتباك ، ويذكرك تواً بقصة الترك الذى فقد الحكم والسلطان ، والصولة والصولجان ، فلم يعدمه فى مجموعة من القلل ملأها ماء ، وجلس بها على قارعة الطريق ، يأمر وينهى ، ويتحكم دائماً فى كل من ساقه حظه العاثر إلى الشرب منها !! ..

وهؤلاء يطلقون على أنفسهم لفظ (كشاف) والواحد منهم كاشف ، وهم بقايا المماليك الذين فروا من مصر ، عقب المذبحة المشهورة ، مذبحة القلعة التى بيتها لهم محمد على باشا سنة إحدى عشرة وثمانمائة وألف ميلادية — إلى مختلف بلدان الصعيد . ولما أرسل محمد على باشا ابنه إبراهيم باشا لجمع الضرائب فى الصعيد ، طارد فلول المماليك ، وهاجمهم فى أوكارهم التى لجأوا إليها ، فأوسعوا الخطا إلى الجنوب ، واستقر ببعضهم المقام فى بلاد النوبة ، وطابت له فيها الإقامة ، فألقى بها عصاه ، وقرت فيها عينه ، إذ وجد الجو خالياً ، والأهلين فى طبيعتهم الهدوء والطاعة

وقد كان هؤلاء يحملون معهم كثيراً من الجواهر والذهب ، مما خف حمله وغلا ثمنه ، وارتفعت قيمته ، فأمكنهم أن يسيطروا على النواحى التى نزلوا بها فى هذه البلاد بما معهم من أموال ، والمال مفتاح كل مغلق ، وميسر كل صعب ، ومسهل كل عسير . أضف إلى ذلك النعرة التركية التى تطمح دائماً إلى السيادة والعظموت ، والقوة والجبروت ، والسيطرة والرهبوت ، الأمر الذى مكن لهم فى هذه الجهات سلطاناً وقوة ، وثبت أقدامهم ، ورفع شأنهم ..

وبتوالى الزمن ، وانقطاع المماليك عن مبعث السلطان ، وموطن العظمة ، واضطرارهم إلى الاحتكاك بالأهلين فى شتى نواحى الحياة ، وبخاصة سبيل الرزق والعيش ، وبطول العشرة وما طبع عليه النوبيون من أمانة ووفاء ، تزوج هؤلاء من النوبيات ، وتزوج منهم النوبيون ، وأصهر كل إلى الآخر ، فتلاشت بعض خصائصهم ، وأصبحوا مصريين مخلصين ..

ومهما يكن من شىء ، فقد ازداد حب النوبيين لولاة الأمور فى مصر ، وبخاصة أيام المغفور له الملك فؤاد الأول ، الذى ملأ بهم قصره . وتضاعف هذا الحب للمليك المحبوب فاروق الأول حفظه الله ، فغمست بهم دواوين الحكومة ، فكانوا مثال العفة والنزاهة ، والأمانة والإخلاص ..

عبد الحفيظ أبو السعود